نظرة في تاريخ يافا

بقلم حضرة الاب ا. س. مرمرجي الدومنيكي
استاذ المعهد الكتابي والاثري الفرنسي في القدس الشريف

٢

٤ً العصر اليوناني البيزنطي

في سنة ٣٣٢ ، احتلّ الاسكندر المكدوني فلسطين . فسقطت بذات العمل صور ، وغزة ، ويافا . على ان الاسكندر لم يكن على شاكلة الفاتحين القدماء ؛ لكونه لم تكن مُنيته الفتح وحسب ، بل كان يسعى في الوقت عينه ، بنشر الروح الاغريقي ، والحضارة اليونانية . وكانت يافا معدّة لهذه السياسة ، لما كان بينها وبين جزائر ايجه ، واليونان ، من سابق الصلاة . فنزلها قوم الاسكندر ، وجعلوها يونانية ، حتى في اسمها ، فانهم ابدلوه باسم «جوبي: Joppé » ومما يجدر بالذكر ان اول مضرب اقامه الاسكندر لضرب النقود ، كان في يافا .

اما بعد موت الاسكندر ، وتخاصم قواده على السيادة ، واقتسامهم ملكه ، فقد وقعت يافا في حكم بطليموس الاول ملك مصر . واستمرت تتنقل من يد مالك ، الى يد مالك آخر ، من هؤلاء القواد وخلفائهم ، حسب احوال الحروب ، وتقلبات السياسة . فبعد البطالسة ، حكم على يافا السلوقيون ومنهم سلوقس الرابع ، وفيلوپاتر ، وانطيوخس ابيفانيوس ، الذي كان قاسيا . ولبغضه لليهود ، واضطهاده لهم ، اثار ثائر المقابيين ، فنجم عنه استقلال الاسرائيليين حقبة . من الزمن لم تدم طويلا ، وهذه هي المرة الاولى التي طال بها ملك اليهود ليافا ، فأضحت مرفأ لهم . ويخبرنا الكتاب انه في ذلك الزمان ، كانت طائفة من اليهود ساكنين في يافا . ففي بداية الحروب المقابية ، خانهم الوثنيون ، اذ تظاهروا لهم بالصداقة ، ودعوهم يوما الى النزهة في البحر .

ومن غريب الامور ، ان اليهود لم يشكوا في ما اضمره لهم اعداؤهم . فصمدوا السفن ، وبصحبتهم نساؤهم ، واولادهم . غير انهم ما بلغوا عرض البحر ، حتى قام عليهم الوثنيون ، فاغرقوهم . وكان عدد الغرقى نحو المئتين . فلمّا بلغ الامر يهوذا المقابي ، جمع جنده ، وزحف الى المدينة ، ودخل الميناء ليلًا ، فاضرم النار في السفن الراسية هناك ، وامر بقتل كل من حاول الفرار الى البرّ . ثم بعد ان نال المقابيون الاستقلال بانتصاراتهم المتواصلة ، احتلّ سمعان اخو يهوذا المقابي يافا ، واقامها مرفأ لحكومته .

٥ً العصر الروماني ابو زنطي

اول ما احتلّ الجنود الرومانيون من البلاد الشرقية ، كانت مصر وآسية الصغرى . ثم عقبتهما بلاد البنطس وارمينية . فان پمپيس القائد الشهير ، بعد ان استولى على تلك البلاد ، وكرّ راجعاً ، فتح في عودته سورية ، ودخل دمشق منصورًا . وتبعت فلسطين سورية في امر الخضوع والتسليم لحكم الرومانيين . امّا المدن الساحلية ، فانها كانت منفصلة عن بقية البلاد ، أعلنت مدنا حرّة ، وفي جملتها يافا . واضطرت الاحوال يوليس قيصر الى محاربة پمپيس فكسره . وقد ساعده في ذلك انتيپاتر . فكافأهُ لهُ على هذه الخدمة ، ملّكه على اليهودية . وبما ان سكّان يافا كانوا من انصار قيصر ، منح مدينتهم امتيازات شتى ، واعفاهم من تأدية الجزية سواء لرومة او القدس .

وفي زمن السيد المسيح ، كانت يافا في عداد المدن العشر الممتازة ، في حكم الرومانيين . ولمّا اخذ الدين المسيحي بالانتشار ، كان سكان يافا من اول الذين دانوا بهِ . والظاهر ان جماعتهم كانت وافرة من بادئ الأمر ، وقد زادهم عددًا ورسوخًا في الايمان ، بَعْث الرسول بطرس لطبيته من الموت . وقد استمرّ بطرس زمنًا طويلًا فيها ، ساكنًا عند سمعان الدباغ ، الذي كان بيته قرب البحر . وفي هذا البيت عينه ، اذ كان بطرس يومًا على السطح يصلي ، رأى في الرؤيا وعاء نازلًا من السماء ، مملوءًا حيوانات مختلفة الاجناس ، منها طاهرة ومنها نجسة . وعند ذلك سمع صوتًا يحمله على قبول الامم في الكنيسة . وبينما هو مفكر في امر الرؤيا ، اذا برسل كرنيليس قائد المائة

قد اتوا اليه ، فطلبوا منهُ ان يذهب معهم الى قيصرية . وهناك قبل تنصر كرنيليس ، فكان اول متنصر من الامم .

وبعد ذلك الزمان ، نجد يافا عامرةً ، والدين المسيحي زاهراً فيها ، ازدهاراً جعلها ان يُقام فيها كرسي اسقفية . وقد زارها القديس هيرونموس ، في القرن الرابع ، تصحبه القديسة باولا النبيلة الرومانية وابنتها اسْتُوركيم . وقد عجبوا من مرفئها الذي انهزم منهُ يونان النبي ؛ ورأوا الصخرة التي يذكر في محيّلات اليونان ان « ادروميدا » كانت موثوقة فيها بسلاسل . وفي اعمال المجامع التي عقدت في القرنين السادس والسابع تقرأ اسماء كثيرين من اساقفتها

٦ عصر العربي

كان دخول الجيوش العربية سورية وفلسطين ، ومن ثمَّ بيت المقدس ، سنة ٦٣٦ . وقد كان احتلالهم المدينة المقدسة بقيادة الخليفة عمر الفاروق ابن الخطّاب . وفي ذاك العام نفسه دخل يافا عمرو بن العاص فاتح مصر الشهير ، فبدل اسمها اليوناني ، باسم يافا . وبقيت المدينة في مقام المدن المهمّة في فلسطين واستمرت المرفأ الذي ينزل اليه الزوّار القاصدون القدس . وهناك كانوا يتبركون بزيارة بيت سمعان الدباغ ، وقبر طابيته ، وكنيسة القديس بطرس الرسول . وحسب رواية اليعقوبي المؤرخ العربي ، الذي عاش في القرن التاسع للميلاد ، عادت يافا فاضحت مركز التجارة في فلسطين ، ودامت على هذه الحال الى زمن الصليبيين .

٧ عصر الصليبيين

في سنة ١٠٩٩ ، لمّا اقبل الصليبيون الى هذه الديار ، كانت يافا في مقدمة المدن التي استولى عليها غودفروا دي بويون ، وهو زاحف الى القدس . وكان سير الصليبيين في الطريق عينها التي طرقها الفلسطينيون ، قبل ذلك الزمان بزهاء ٢٣ قرناً . اي انهم توجهوا من انطاكية نحو الغرب على طريق الساحل ليتصلوا بمراكب الجنويين عند يافا . وبعد ان فتح غودفروا القدس ، عاد فشرع ببناء ما هدم في يافا عند محاصرتها .

وفي عيد الميلاد من تلك السنة ، تأسست المملكة اللاتينية في اورشليم

على الطريقة الاقطاعية . فاقيمت يافا ونواحيها كونتية . وبعد ان أُخذت عسقلان أُلحقت بها ، فدُعيت كونتية يافا وعسقلان ، واعيد اليها كرسيها الاسقفي . وقد كان عصر المملكة اللاتينية ، كالعصر العربي ، عصر تجارة عظيمة ، وتقدم زراعي ، للمدن الساحلية ، ولاسيما ليافا ، اذ انها كانت اهم مرفأ تجاري ، واقوى معقل حربي في هذه الربوع ، ما بقيت القدس بيد الصليبيين . اما بعد سقوطها ، فاضحت عكا المرفأ العسكري ، وبقيت يافا في المقام الاول ، سواء من جهة التجارة ، او من جهة الزيارة للاراضي المقدسة . وكانت الميناء الاخير الذي ترسو فيه سفن الغرب الجائلة في سواحل البحر المتوسط . وكانت هذه السفن تأتيها فرادى او بعدد محصور ، وفي اي فصل من فصول السنة . الّا ان العمارة التجارية كانت تقدم اليها مرات معينة كل عام ، من السواحل الايطالية وكان يرفق العمارة اسطول مسلّح ، يقوده امير موفد من قبل حكومات تلك الديار .

ولم تزل يافا منذ ذاك الحين عرضة لتقلبات الاحوال . فكانت تارةً بيد الفرنجة ، وتارةً بيد المصريين . ومن المواقع الشهيرة التي جرت فيها بين الصليبيين والمصريين ، المعارك التي اشتبكت فيها جيوش صلاح الدين وملك الانكليز ريكاردس قلب الاسد ، وما اظهره هذان الملكان الكريمان ، والفارسان الصنديدان ، من الشهامة ، والبسالة ، والبطولة ، قد خلّد لهما الذكر الطيب في التاريخ . فان صلاح الدين ، عند محاصرته هذه المدينة ، لم يجتزئ بالقاء الاوامر على قواده وجنوده ، بل كان يرتمي هو ذاته الى الامام ، ويساعد عسكره على حفر الانقاب ، وتبال المحاصرين تنزل عليه كالمطر الوابل ، وهو في وسط الدخان ، وامام النيران المتأججة . وكذلك الملك ريكاردس ، فانهُ لمّا اقبل من عكّا باسطوله الى مرفأ يافا ، وقد احتلّها المصريون ، الّا القلعة التي التجأ اليها الصليبيون ؛ ولمّا علم ان هذه القلعة لم تزل في حوزة عسكره ، لم تكن الّا لحظة ، وقد القى بذاته الى البحر ، قبل الجميع فتبعه قواده . وصعد الى الساحل حيث كان قد احتشدت جنود المصريين ، جماهير مجهرة . فما كان منهُ الّا ان امتشق حسامه ، واقبل اليهم بقلب دونه قلب الاسد جرأة

وبسالة ؛ فشقّ صفوفهم ، وشتّت شملهم ، واسرع متقدما عسكره الى المدينة فرفع فيها رايته . فلمّا رآها المحاصرون في القلعة ، عادت اليهم شجاعتهم ، فنزلوا اليه ، ودفعوا الاعداء الى الخارج ؛ ممّا مكّنه ان يفاوض صلاح الدين ، في شأن الصلح ، على شروط شريفة .

ومما يجمل بالذكر في هذا الصدد ، ان القديس لويس ملك فرنسة ، احتلّ هذه المدينة وعسكرَ جنده في ما حولها من البساتين . وقد سعى في بناء سورها وابراجه ، وكان هو عينه يشتغل مع العملة . وهو الذي اسّس ديراً للفرنسيسيين وعمّر لهم كنيسة .

٨ً العصر المملوكي

في ايام بيبرس عادت يافا فخربت ، الّا ان اهاليها ، اصحاب الهمة ، لم يعشوا ان عادوا اليها ، فاخذوا بتعمير اسوارها وابراجها وقلعتها . كما ان سفن التجارة استأنفت المجيء اليها ، ولاسيما الايطالية منها . وقد زارها ابو الفداء فقال : انها مدينة صغيرة جميلة ، اراضيها مخصبة ، ويتردّد الى اسواقها كثير من التجار ، ويرسو في مرفأها كل السفن القادمة الى فلسطين ، ومنها تقلع الى غير بلاد . وقال عنها السائح اليهودي رابي اسحق شيلو : انها محال البحار ، ومحل تجارة مهمة ، وان اهاليها في غنى ورفاه . واهم ما يتّجر به فيها الزيت ، والقطن ، والصابون ، والآنية الخزفية ، وغير ذلك . وفي القرن الرابع عشر ، شيّد الامير جمال الدين بن اسحق مقام الولي المدعو « قبة الشيخ مراد » ، الموجود اليوم شرقي ضواحيها ، المدعوة « بسكنة ابي كبير » .

٩ً العصر التركي

الّا ان الدهر الخؤون عاد فقلب لها ظهر المجنّ ، فحالت الى الدمار . لكنها لم تزل مع ذلك محطّ رحال الزوار ، المقبلين لزيارة القدس ، ولم يكونوا يجدون فيها محلّا يستظلّون به من الشمس والمطر ، الّا مبدأ صغيراً كان من بقايا كنيسة القديس بطرس . واستمرت على هذه الحال ، حتى بعد ان كسر الترك المماليك ، واحتلّوا مصر ، وفلسطين على عهد سلطانهم سليم الاول ، في القرن السادس عشر .

نحو منتصف القرن السابع عشر ، نزل بعض الرهبان الفرنسيسيين، فسكنوا يافا ، بين تلك الخرائب ، ثم ابتنوا بعض الغرف ، لايواء الزوّار ، فاتهمهم الترك ببناء معاقل ، فاخربوا ما عمروه . الّا ان هؤلاء الرهبان ، بعد سنين قلائل ، نالوا الاجازة بتعمير ما خرب . وعلى مثال الفرنسيسيين سار غيرهم من الطوائف المسيحية ، وكثير من الاهالي الساكنين الرملة ، وغيرها ، ممن مهنتهم مزاولة التجارة . فاخذوا يأتون رويدًا رويدًا فيسكنون يافا . عندئذٍ تحسّنت احوالها ، وراجت اسواق تجارتها ، من منتصف القرن الثامن عشر الى ما بعده .

ومما يجدر بالذكر في تاريخ هذا العصر ، الحوادث التي جرت على يد الرجال الذين حكموها ، من مثل علي بك صاحب مصر ، وظاهر بن عمر ، حاكم عكا ، ومحمد ابي الذهب ، واحمد الجزار ، وحملة نابوليون عليه ، وابي نبّوت ، ومحمد علي ، وابنه ابراهيم باشا .

فعلي بك الذي توصل فامتلك مصر ، في منتصف القرن الثامن عشر ، انتهز فرصة ارتباك الترك بمحاربة الروس ، فزحف الى غزة ، والرملة ، واللّد . واتفق مع ظاهر بن عمر الذي كان يقاتل عثمان باشا والي سورية .

واما يافا ، فلاجل الانقسام الذي حصل بين اهلها ، تمكن ظاهر بن عمر من دخولها واقامة الحامية فيها . امّا علي بك فارسل ابنه محمد الملقب بابي الذهب — لما كان في خيمته من الرياش الثمينة — على رأس ٤٠ الف مقاتل لمساعدة ظاهر . فتوجه كلاهما الى الشام ، وبعد ان استوليا على القلعة ، اذا بمحمد قد غادر المدينة فجأةً ، فعاد الى مصر حيث اعلن الحرب على علي بك . وبعد ان كسر جيشه ، قبض على زمام الحكم في القاهرة . وفرّ علي بك الى غزة ، ومنها الى عكّا ، حيث التجأ الى حليفه ظاهر العمر ، ثم تمكن بعد ذلك من العودة الى يافا ، للاقتصاص من اهلها . فحاصرها ثمانية اشهر ، وفي آخرها سلّمت . الّا ان علي بك جرح وأُسر في معركة بينه وبين ابي الذهب .

ثم عاد ابو الذهب بامر من الباب العالي ، فزحف الى فلسطين ، وجاء فحاصر يافا . واشتدّ الامر عليه ، لان السكان قاوموه من داخل . وفي اثناء المفاوضة في شأن الصلح ، دخل بعض المماليك المدينة ، وحاولوا السلب ،

فانهم الاهلون . حينئذٍ انقذت العساكر كلها عليهم ، واعملوا فيهم السيف بطريقة تقشعر لها الابدان . واما ابو الذهب ، فهو عينه أمر بان تجمع رؤوس القتلى ، فصار منها هرم ، اقامهُ على التل الذي عليهِ نصب مدافع المصريين . فدعي منذ ذاك اليوم « تل الرؤوس » وبعد اخذ عكا بايام ، مات فجأةً . فاسرع جيشه بالعودة الى مصر .

وقام بعد ذلك على عكا خلفاً لظاهر العمر ، احمد الجزار المشهور . وهو الذي طرد منها الفرنج الذين كانوا ساكنين فيها منذ قرون للاتجار ، فاغتصب املاكهم واموالهم . وعليه ، فلمَّا حمل بونابرت حملته من مصر الى فلسطين ، لكسر شوكة الجيش التركي ، كان من مقاصده اخذ عكا ، وانزال القصاص بالجزار ، فبعد ان استولى نابوليون على غزة والرملة ، انسحب العسكر التركي الى يافا ، وهناك في داخل المدينة ، جرت معركة اسفرت عن اشدّ اهوال الحرب . وفي يافا ايضاً فشا الطاعون بين عسكر الامبراطور ، فاضطر هو عينه الى الذهاب لافتقاد المضروبين . وكان يجسّ قروحهم بيده ، تشجيعاً لهم ، ولغير المصابين .

امَّا السنون التي عقبت ذلك فقد كانت حقبة تقدم وفلاح للمدينة . اذ تولاها رجل يلقب « بابي نبوت » وهو الذي شيَّد الجامع الكبير ، والسوق ، والمعين ، وكل هذا من ابدع ما يكون من البناء ، والاتقان ، والزخرف . واقام سبيلاً يُدعى سبيل « ابي نبوت » وهو واقع على طريق القدس .

وفي اواسط القرن التاسع عشر استقلّ محمد علي حاكم مصر ، وارسل الجيوش لفتح فلسطين بامرة ابنه ابراهيم باشا . فجاء الجيش وعسكر بين يافا والولي ابراهيم العجمي . اما السكان ، فبعد المفاوضة والتدبّر ، اجمع رأيهم على التسليم ، دون مقاومة ، حقناً للدماء . فاحتلّ ابراهيم المدينة . وفي اثناء هذا الحكم ، لم ينل يافا ادنى ضرر ، بل انها سارت متقدمة ، وزهت . وقد كان من نيَّة ابراهيم باشا ان يحيل « بصَّة يافا » الى مرفأ داخلي ، تحمله ترعةٌ بالبحر . الَّا ان هذا الفكر لم يجرَ بالعمل ، اذ توصلت تركية ، بمعاونة

بعض كبار الدول الاوربية ، الى ان تستعيد فلسطين . فكان ذلك آخر العهد بحكم المصريين.

على ان بعض مئات من العائلات المصرية ، من الذين هاجروا من مصر الى فلسطين ، في غضون احتلال ابراهيم باشا ، استقرت في ضواحي المدينة ، فانشأت قرى صغيرة ، احتاطت بها البساتين . ومن هذه القرى ، سكنة ابي كبير ، وسكنة حماد ، وسكنة الدرويش.

واما الحالة من ذاك الحين الى هذه الايام فهي معروفة من الجميع ، فلا حاجة الى الاستفاضة بها.

بعد هذا الطيران ، بطيارة الفكر ، على تاريخ يافا وحياتها الطويلة ، طولًا يربو على الخمسين قرناً ، الا يجدر بنا ان نستنتج ان ليافا الحق بان تفتخر وتفاخر غيرها من المدن . اجل لها الحق ان تفتخر ، لان اسمها الجميلة، وهو اسم وافق المسمّى ؛ لانها جميلة بموقعها ، جميلة بهوائها ، جميلة بجناتها ، جميلة ببحرها. وهي بنت البحار ، ومقصد التجار . يحق لها ان تفتخر بقدمها ، لان مدناً قليلة قد وُجدت منذ وجودها . يحق لها ان تفتخر لما لموقعها من المناعة والخطورة ، ولاراضيها من الخصب ، ولتجارتها من الاهمية . فانها في كل زمان قد كانت سوقاً رابحة ، يقصدها التاجرون برًا وبحرًا . يحق لها ان تفتخر لكثرة الدول التي طمحت اليها بابصارها ، ولحلول اعاظم الرجال ، والملوك والقواد فيها . يحق لها ان تفتخر لما فيها من الذكريات الدينية ولكونها مدخل اشهر مدينة في العالم ، وهي المدينة المقدسة . يحق لها ان تفتخر حتى بصائبها ونكباتها ، لانها لم تكن تدمّر فتخرب ، الّا وبعد قليل تنبعث من رمسها . فهي حرية بان تلقب بالمدينة « الميتة الحيّة » . يحق لها ان تفتخر بثبات وصلابة اهاليها وتعلقهم بها ، ان كانوا من القدماء او من الحاليين . لان يافا قد زادت ، وتقدمت في هذه الآونة ، اكثر من كل زمان ، وحال من الاحوال . فهي راقية من الوجهة التجارية ، والاقتصادية ، والزراعية ، والادبية ، والعلمية ، والدينية ، والاعمال الخيرية ، زادها الله تقدماً ونجاحاً ، وصانها من آفات العصر الوخيمة.